كتاب في دقائق

ملخصات لكتب عالمية تصدر عن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

التعلم باللعب

إطلاق العنان لطاقات الأبناء يجعلهم مبادرين و سعداء و طلاباً نُجباء

تأليف:

بيتر جراي

تأليف: بيتر جراي

19

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

في ثـــــوانٍ...

في كلمات مضيئة جمعت بين حناياها خبرات السنين وضمت في طياتها عمق الرؤية وسداد البصيرة، يرسم سيدي صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي "رعاه الله" خارطة طريق الوطن نحو الريادة المستدامة، حيث يقول سموه: "كل المطلوب لتحقيق أهدافنا أن نقود الشعب في الطريق الصحيح وننمّي في بناته وأبنائه روح الابتكار والإبداع والثقة بالنفس والتصميم على الإنجاز والقدرات القيادية". بهذه الكلمات،لم يكتف سموه برفع سقف طموحات الوطن، ولم تقتصر المعاني على رسم خطوات طريق النجاح، بل جاءت المفردات بمثابة وصفة حكيم. إن الابتكار في التعليم ينشئ جيلاً مبدعاً، وصفة الإبداع تُكوّن نفاذ البصيرة وتُكسب الثقةَ بالنفس، وإذا ما اجتمع الابتكار والإبداع مع نفاذ البصيرة والثقة بالنفس تتكون شخصية وقدرات جيل يمتلك مكونات قيادة المستقبل نحو الريادة، وقيادة بتلك المواصفات لابد وأن ترسم سياسات مبنية على تأصيل روح الابتكار في الأجيال الجديدة، لنجد أنفسنا أمام دائرة مبدعة تُعيد إنتاج ذاتها تحت عنوان الريادة المستدامة.

وفي إطار سعي مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم الدائم على نشر وطباعة المؤلفات التي تُثري العقول وترتقي بمكتسبات الوطن والتي تؤكد على منهجية توجهات ورؤى قيادتنا الرشيدة، تأتي ملخصات الدفعة السابعة لمبادرة "كتاب في دقائق" لتشمل 3 مواضيع معنية بأهمية تنشئة طفلٍ مبدعٍ وجيلٍ مبتكرٍ وقادةٍ قادرين على إحداث التغيير.

وفي دفعتنا الجديدة سيأخذكم ملخص كتاب "التعلُّم باللّعب" في رحلة عصف ذهني حول ما إذا كان نظام التعليم الإلزامي المُطبق في العالم حالياً هو الأنجع لأطفالنا والأقدر على تنشئة جيل مبدع؟ أم أن غريزة التعلم الفطرية لدى الأطفال، المبنية على الفضول والتلقائية، تفقد بريقها وتنحرف عن المسار بمجرد تحجيمها في قالب روتيني جامد يُسَمَّى التعليم الإلزامي؟ أما ملخص الكتاب الثاني فيحمل اسم: "رؤية اللامرئي: كيف تتمتع بنظرة ثاقبة وبصيرة نافذة؟"، حيث يناقش خلاله مؤلف الكتاب، جاري كلاين، أهم محفزات نفاذ البصيرة والتفكير الإبداعي، والتي يلخصها في خمسة عوامل هي: الروابط والمصادفات والفضول والمتناقضات واليأس الإبداعي. وتختم ملخصات الدفعة السابعة بكتاب "القادة يُؤثِرون فيُؤثّرون" من تأليف سيمون سينيك، الذي يتبنى نظرية مثيرة للاهتمام، حيث يرى الكاتب أن المحفزات التي تسهم في تحسين سلوك الأفراد على الصعيد الشخصي هي ذاتها التي تساعد المؤسسات التجارية في تحقيق النجاحات.

وفي الختام أتمنى أن تنعموا بقراءة مفيدة وأن تنال ملخصات الدفعة السابعة من "كتاب في دقائق" رضاكم، آملاً أن نكون قد ساهمنا في تنوير العقول وتعزيز قيمة العلم ولو بالجزء اليسير من أجل المساهمة في تطوير مجتمع متقدم، يتخذ من العلم والثقافة والأدب سنداً وظهيراً يتكئ عليه في رحلته نحو الريادة المستدامة.

جمال بن حويرب

العضو المنتدب لمؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

لماذا نفعل بأبنائنا كلَّ هذا؟

يأتي الأطفال إلى العالم شغوفين بالتعلم وقادرين عليه، ومؤهلين له جينياً ونفسياً بما يكتنزونه من قدرات استثنائية. وخلال السنوات الأربع الأولى من أعمارهم يستوعبون قدرًا هائلاً من المعلومات، ويكتسبون العديد من المهارات دون إرشاد مباشر، فيفهمون ثقافة مجتمعهم ويتعلّمون التحدث بلغته، ويتعلمون كيف يدافعون عن آرائهم، وكيف يجادلون، وكيف يعقدون صداقات مع الآخرين، وكيف يطرحون أسئلتهم. كما أنهم يُعمِلون خيالهم ويعبرون عن آمالهم، ويرسمون ألواناً زاهيةً لأحلامهم. يدفعهم إلى كل هذا فضولهم التلقائي، ودوافعهم الفطرية. إلا أن هذه الرغبة الجامحة والقدرة الهائلة على التعلم، تتوقف أو تنحرف عن مسارها الفطري وعن طبيعتها، عندما يبلغ الأطفال الخامسة أو السادسة من العمر، بفعل نُظم التعليم الإلزامي، وبمعنى أصح "التعليم الإجباري." فالدرس الأول والأصعب الذي يتعلمونه في المدارس هو أن التعلّم عمل شاق، وواجب إجباري، يخلو من المتعة والبساطة والتلقائية، ولذا من الأفضل تجنبه أو التحايل عليه، والتعامل معه بنفس أدواته، للتخلص من عيوبه، والاكتفاء بما يمكن الاقتناع به من حسناته.

فطرة اللعب

الأطفال مجبولون بطبيعتهم على حب اللعب والاستكشاف الذاتي دون مساعدة الكبار. وهم يحتاجون إلى الانطلاق والحرية في اللعب من أجل أن ينموا. كما أن دوافعهم للعب بحرية هي دوافع غريزية وأساسية كامنة ومتوثِّبة. صحيح أن فقدان القدرة على اللعب بحرية قد لا يوهن الجسد كما يفعل نقص الغذاء أو الهواء أو الماء، إلا أنه يقتل الروح ويعوق النمو العقلي والنفسي بكل طاقاته واحتمالاته. فاللّعب الحر هو الوسيلة التي يتعلّم من خلالها الأبناء كيف يكسبون الأصدقاء، والتعاون والانتماء، فضلاً عن التغلُّب على مخاوفهم، وحل مشاكلهم، والسيطرة على مُجريات حياتهم.

عندما تتاح للأطفال الحرية والوسائل والظروف التي تُمكّنهم من تحقيق احتياجاتهم الخاصة بأنفسهم، وفي ظروف آمنة، فإنهم يزدهرون ويَتطورون ويندفعون في مسارات متنوعة وغير متوقعة، ويكتسبون المهارات المناسبة والثقة اللازمة لمواجهة تحديات الحياة. في مثل هذه البيئة، لا يطلبُ الأطفالُ مساعدةَ الكبار إلا عند الحاجة الماسة فقط. فليس هناك ما يدعو لإجبارهم أو «إلزامهم» على الدروس والواجبات والمهمات والاختبارات والدرجات، وتصنيفهم بالإكراه – تبعاً لأعمارهم – في فصول دراسية جامدة، استناداً إلى سياسات واستراتيجيات وأدوات عفَّى عليها الزمن، ولم تتطوّر منذ فجر نظم التعليم الإلزامي. فكل هذا يتداخل – في الواقع العملي – ويتعارض مع تلقائية وفطرة التعلّم الطبيعي التي يتمتع بها كل من البنات والأبناء بلا استثناء.

اللعب غير المنظم

لا نعني بنشاط "اللعب غير المنظم" أنه لعب يفتقر إلى النظام، فاللعب لا يكون نشاطاً عشوائيًاً أبداً؛ فهو نشاطٌ غريزيٌ ومنظّم أيضاً. المقصود بوصف "غير المنظم" هو أن الأطفال عندما يلعبون، يبادرون بغريزتهم وتلقائيتهم إلى تنظيم اللعب بأنفسهم، من دون مساعدة مباشرة أو توجيه مقنّن من جهة خارجية. يُسمّى هذا النوع من اللعب أيضاً "اللعب الحر"؛ وهو اللعب الذي يقرر فيه اللاعبون (الأطفال)، لأنفسهم وبأنفسهم ما يلعبون، وكيف يلعبون، وتكون لديهم حرية تعديل الأهداف والقواعد أثناء اللعب. فاللعب الحر، أو غير المنظم، يتعلق بكيفية تعلّم الأطفال، وتنظيم سلوكهم، ووضع قواعد اللعبة وتطبيقها في الملعب من تلقاء أنفسهم.

مفارقة رهيبة

منذ بضع سنوات، أجرى عالما النفس: "ميهالي تشكزنتميهالي" و "جيرمي هانتر"، دراسةً عن مدى السعادة أو التعاسة التي يشعر بها الطلاب في المدارس العامة، وذلك في الصفوف الدراسية من السادس إلى الثاني عشر. شملت عَيِّنةُ الدراسة أكثر من 800 طالب، من 33 مدرسة مختلفة، في 12 مجتمعاً مختلفاً. حيث حمل الطلاب ساعات يد خاصة لمدة أسبوع، كانت مبرمجةً على بث إشاراتٍ في أوقاتٍ عشوائيةٍ بين الساعة السابعة والنصف صباحًا، والساعة العاشرة والنصف مساءً، وكلما انطلقت إشارة، قام الطلابُ بملء استبيانات في حوزتهم، موضحين فيها أين كانوا، وماذا كانوا يفعلون، ومدى إحساسهم بالسعادة أو التعاسة في تلك اللحظة.

تجلّت أدنى مستويات السعادة عندما كان الأطفال في المدرسة، وبلغت أعلى مستوياتها عندما كانوا خارجها، وخاصةً عندما كانوا يتحدثون ويتفاعلون ويلعبون مع أصدقائهم. أما الوقت الذي كانوا يقضونه مع آبائهم وأمهاتهم، فجاء في المنطقةِ الوسطى متأرجحاً ما بين السعادة والتعاسة. كما ارتفع مستوى السعادة في عطلة نهاية الأسبوع، ثم كان يتراجع في الليلة التي تسبق الأسبوع الدراسي الجديد. فمن هو الذي نظر ثم قرّر أنّ أفضل طريقة لتعليم الأطفال هي إجبارهم وإلزامهم على أن يعيشوا في بيئات متماثلة ومعيارية ومقنّنة، وفي أوضاعٍ متشابهة ورتيبة تجعلهم يشعرون بالملل والتعاسة والقلق؟!

إنها مفارقةٌ مؤسفةٌ ومحزنة؛ فها نحن وباسم التعليم، نحرم الأطفال كثيراً من الوقت والحرية اللذين يحتاجونهما ليعلّموا أنفسهم بأنفسهم، وبأساليبهم وطرقهم الخاصة. وباسم الحفاظ على سلامتهم، نحرمهم من الطاقات التي يحتاجونها لتنمية المفاهيم والشجاعة، والثقة اللازمة لمواجهة تحديات الحياة المتقلبة والمتشابكة، بإقدام ورباطة جأش.

يعيش العالم أزمةَ تعليم حقيقية تتزايدُ خطورتُها باطّراد؛ بعدما فقدنا القدرة على رؤية الطريقة الطبيعية لتربية أطفالنا، ولأننا لم نعد نؤمن بهم وبقدراتهم، ووضعنَاهم في بيئات تعلّم تقيد قدراتهم الطبيعية، وتَحُول بينهم وبين تعليم أنفسهم . لقد أنشأنا لهم عالماً يقودهم أحياناً إلى التيه والضياع، فيجعلهم غيرَ قادرين على الثقة بأنفسهم، لاكتساب المهارات اللازمة لكي ينضجوا ويتحملوا مسؤولياتهم عندما يشُبّون عن الطوق ويدخلون عالَمَ الكبار.

في البدء كان اللعب

من الناحية الوراثية والجينية، نحن ننتمي جميعاً إلى مرحلة الصيد وجمع الثمار. وقد نشأنا عبر القرون الماضية وعلى مدى السنين وفقًا لهذا النمط من الحياة والوجود، والذي يصفه علماء الأنثروبولوجيا باعتباره السبيلَ الوحيدَ الذي عرفه الجنس البشري للحياة المستقرة والآمنة. وقد ظهرت الزراعة بعدئذ ولأول مرة في الهلال الخصيب في غرب آسيا قبل عشرة آلاف عام، ثم انتشرت في مناطق أخرى من العالم في وقت لاحق، مما أدَّى إلى حدوث الكثير من التغييرات في طرق معيشة بني البشر، وهي تغييرات إنسانية وحضارية كان علينا التكيّف معها، ومع الأدوات التي تطورت لتلبية احتياجاتنا باعتبارنا صيادين وفرساناً ومزارعين. ولكي نتعرف علي نهج الصيادين والفلاحين وجامعي الثمار في تربية الأطفال وتعليمهم في ذلك الزمان، كان لزاماً علينا أن ندرسَ سلوكياتهم ونفهمَ قيمَهم الثقافيةَ، وعلاقاتِهم الاجتماعية.

الاعتماد المتبادل والمشاركة والمساواة

كان الصيادون وجامعو الثمار والمزارعون يعيشون في جماعات صغيرة (ما بين العشرين والخمسين شخصاً في المتوسط). وكانوا ينتقلون ويرتحلون من مكان إلى آخرَ، داخلَ مساحات كبيرة – لكنها محددة – من الأراضي، سعياً وراء الطرائد والنباتات المتاحة. وكانت قيمهم الاجتماعية الأساسية تتمثل في المبادرة، والاعتماد على الذات، وحرية الحركة والمشاركة والمساواة.

تمتّع الصيادون وجامعو الثمار بإحساس قوي بالاستقلال والحرية المعيشية، لدرجة أن كلاً منهم كان يحجم عن الإملاء على الآخر ماذا يفعل، وكيف عليه أن يعيش. حتى إنهم كانوا يمتنعون عن تقديم المشورة إلى بعضهم البعض، إلا إذا طلبها أحدُهم من الآخر، وذلك تجنباً لأن يبدو الأمرُ وكأنه تدخلٌ في حرية الآخرين. ومع ذلك، لم تتضمن نظرتهم الشخصية واستقلاليتهم التفكير في احتكار الموارد، أو جعل الآخرين مدينين لهم؛ لأن هذا يتعارض مع قيمة أخرى عظيمة لديهم، وهي قيمة المشاركة والاعتماد المتبادل.

من وجهة النظر الاقتصادية، كانت المشاركة هدفاً لجماعات الصيادين وجامعي الثمار؛ إذ كانوا يكرّسون قدراتِهم ومهاراتِهم وجهودَهم، ويقدمونها مجاناً خلال تعاونهم للحصول على الغذاء. كما كانوا يدافعون عن أنفسهم ضد الحيوانات المفترسة ويتوّلون رعاية صغارهم. وهم يتشاركون الغذاء والسلع والأدوات مع كل فرد في الجماعة، بل ومع الجماعات الأخرى. الجدير بالذكر أن مفهوم المشاركة لدى الصيادين والمزارعين، كان يختلف عن مفهومنا نحن لها. فلم تكن المشاركة كرماً حاتمياً بحتاً، ولا مقايضةً ضمنيةً، بل كانت واجباً على الفرد تجاه الآخرين. كما كانت المساواة ترتبط بمفهومي الاستقلال والمشاركة لدى الصيادين وجامعي الثمار، وتعني أن احتياجاتِهم تكون أيضاً متساويةً وعلى نفسِ القدر من الأهمية، فلا يأكلُ أحدهم بمفرده أو ينأى بنفسه بعيداً عن الآخرين.

التنشئة المفعمة بالثقة

عندما يصف الباحثون معاملة الكبار للأطفال في مجتمعات الصيد وجمع الثمار، فإنهم كثيراً ما يستخدمون مصطلح "التنشئة المتسامحة"، وهم يقصدون بها "التنشئة البسيطة والمفعمة بالثقة". إذ كانت روح المساواة والاستقلالية التي تسود العلاقات الاجتماعية في مجتمعات الصيد وجمع الثمار تنطبق على طرق تعامل الكبار مع الأطفال، مثلما تنطبق على تعامل وعلاقات الكبار بعضهم مع بعض. إذ يبدو أن من الركائز الأساسية للتنشئة في هذه المجتمعات الثقة في غرائز الأطفال والاطمئنان إليها، فالأطفالُ الذين يُسمح لهم باتباع ما تمليه عليهم إرادتهم، حتماً سيتعلمون ما يحتاجون إلى تعلمه، ومن ثم سيساهمون بطبيعة الحال في اقتصاد الجماعة بامتلاكهم المهارات المناسبة والنضج المطلوب لتوظيف الأدوات الضرورية لذلك.

ترسِل التنشئة المفعمة بالثقة رسائل نفسية إلى الأطفال، تنسجمُ مع احتياجاتهم الحقيقية في المكان والزمان، مثل: "أنت تتمتع بالكفاءة، وآراؤك مهمة، ويجب أن تتحمل مسؤولية أخطائك وتتعلم منها." فالحياة الاجتماعية ليست صراع إرادات، وإنما هي مساعدة كل منا للآخر، بحيث يكون لدينا جميعاً كل ما نحتاج إليه وما نرغب فيه.

المعرفة والمهارة

من الخطأ أن نفترضَ أنه لكون ثقافات الصيادين وجامعي الثمار "أبسط" من ثقافاتنا، فإن أطفال تلك المجتمعات لم يكونوا بحاجة إلى تعلّم الكثير مقارنةً بأطفالنا. إذ يحتاج نمط الحياة في مجتمعات الصيد والزراعة القديمة إلى المعرفة والمهارة بصورة كبيرة، وبسبب الغياب النسبي للتخصص المهني والتدريب الفني، يُصبح على كل طفل اكتساب ثقافة مجتمعه كلها، وبكافة جوانبها وتنوع مناحيها، أو على الأقل الجوانب المناسبة لطبيعته وفطرته؛ ذكراً كان أم أنثى.

المهارات والقيم الاجتماعية

عندما يتيح الكبارُ في مجتمعات الصيد وجمع الثمار لأطفالهم وقتاً غير محدود للعب، فهم يتيحون لهم أيضاً ممارسةً غير محدودة للمهارات والقيم الاجتماعية التي تعتبر بالغة الأهمية والأثر في حياتهم. فاللعب الجماعي يعتبر بطبيعته ممارسة وتطبيقاً ملخصاً للقيم الاجتماعية مثل: التعاون مع الآخرين، والاهتمام باحتياجاتهم، واتخاذ القرارات بالاتفاق والتفاهم فيما بينهم.

اللعب ليس نشاطاً إجبارياً، ولا يمكن أن يكون. بل يحق للاعبين دائماً الانسحاب من اللعبة. ففي اللعب الاجتماعي، يعرف كلُّ لاعب أن مَن لا يرضي عن اللعبة سينسحب منها، وإذا ما شعر الكثيرون بعدم الرضا فإن اللعبة تنتهي تلقائياً. ولكن للحفاظ على استمرارها، لا يجب على اللاعبين تلبية رغباتهم الشخصية فحسب، وإنما أيضاً تلبية رغبات شركائهم من اللاعبين الآخرين. وبالتالي، فإن حاجة الأطفال إلى اللعب تعد دافعاً قوياً ليتعلموا كيف يراعون رغبات الآخرين، والتفاوض معهم، وحل الخلافات التي قد تنشب بينهم.

ضبط النفس

كثيراً ما يعلِّق الباحثون الذين يدرسون طبيعة مجتمعات الصيد وجمع الثمار، على ميل أفراد تلك المجتمعات القوي إلى الاستمتاع والابتهاج وضبط النفس. يقول عالم الأنثروبولوجيا "ريتشارد جولد": "يمكننا دائماً ملاحظة الإحساس بالابتهاج والاستعداد للضحك والمزاح بين قاطني الصحراء. وحتى عندما يعانون من الحَر القائظ، ومن الجفاف الشديد، ويواجهون نقصاً في الماء والغذاء. هذا الابتهاج جزءٌ من القبول المنظم والجماعي للمشقّات والصعاب المتتالية التي ستؤدي الشكوى منها إلى تفاقمها." ولذا، فقد كان أبناء مجتمعات الصيد والمزارعين يعيشون الواقع ويرضون بالقدر، وكانوا راضين ومتلاحمين ومتعاونين، لا متذمِّرين ولا شكّائين.

خصائص اللعب

اللعب مفهوم يملأ عقولنا بالتناقضات عندما نحاول التفكير فيه بعمق؛ فهو نشاط جاد، ولكن ليس بالمعنى الحرفي للكلمة؛ وهو نشاط تخيّليٌ وعفوي، ولكنه في نفس الوقت، مقيد بالقواعد ومرتكز على الواقع؛ وهو سلوكٌ طفولي، ولكنه السبب في أعظم إنجازات الحضارة الإنسانية. ومن منظور تطوري وتنموي، يعد اللعبُ وسيلة طبيعية لكي يتعلم الأطفال ما يجب عليهم تعلمه للبقاء على قيد الحياة والعيش حياة إيجابية ومثمرة. وعلى الرغم من أن اللعبَ يكون دائماً مفعماً بالحبور والسرور والسعادة والإفادة، إلا أنه يبقى عملاً جاداً ورصيناً ومنتجاً. ولذلك يرى خبراء علم النفس الاجتماعي والتفكير الإيجابي، أن اللعب الحقيقي لا يبدأ إلا عندما نظن أننا نعمل، وأن العمل المنتج والفعّال لا يصل إلى أعلى مستويات الانسجام، إلا عندما نظن أننا نلعب.

ورغم صعوبة تعريف اللعب، إلا أنه يمكننا فهمه من خلال خصائصه الخمس التالية:

1- اللعب اختيار وتنظيم ذاتي.

2- في بعض الأحيان تكون الوسيلة في اللعب أهم من الغاية.

3- للعب قواعد لا تمليها الضرورات المادية، ولكنها تنبع من عقول اللاعبين.

4- اللعب نشاطٌ خياليٌ غير مقيد بقواعد العالم "الواقعي" أو "الجاد".

5- يعتمد اللعب على إطار ذهني نَشِط، وخالٍ من الضغوط.

اللعب وضبط النفس

في النصف الأول من القرن العشرين، أكَّد عالم النفس الروسي "ليف فيجوتسكي" أن لعب الأطفال بحرية هو الطريقة الأساسية التي يتعلمون بها التحكم في أنفسهم وسلوكياتهم وعواطفهم. فدافع الأطفال للعب يجعلهم يتجاهلون المضايقات ويقمعون اندفاعهم، مما يمكّنهم من الالتزام بقواعد اللعبة، إذ تنتقل هذه القدرات تدريجياً إلى حياتهم خارج أرض الملعب. وقد أشارت الأبحاثُ الحديثةُ إلى أن اللعب ضروريٌ لنمو بعض مكوّنات الدماغ اللازمة للسيطرة على الخوف والغضب، وللتصرف بفاعلية وثقة في المواقف العصيبة. وليس من قبيل المصادفة أن الثقافات التي تتيح لأطفالها حرية أكبر في اللعب، هي الثقافات التي يتسم فيها الكبار بقدرة أكبر على ضبط النفس.

لماذا أصبحت مدارسنا هكذا؟!

كيف انتقلنا من البيئة التي يكون فيها التعلّم ممتعاً ومنشوداً، إلى البيئة التي يُفرض فيها التعليم على الطلاّب بطرق تجعل الكثيرين منهم يشعرون بالعجز والقلق والاكتئاب؟ لكي نفهم لماذا وصلت الأمور إلى هذا، لا بد أن نعرف شيئاً مهماً عن تاريخ البشرية.

ظهور الزراعة

منذ آلاف السنين، عاش البشر ظروفاً مستقرةً نسبياً في مجتمعات الصيد وجمع الثمار. وتكيفت غرائزهم على طريقة الحياة تلك، ثم ظهرت الزراعة التي تسببت في سلسلة من التغيرات المتعاقبة والسريعة في طرق المعيشة، مما أدى إلى تغيير جذري في طرق التفكير والأساليب المتبعة في تربية الأطفال.

لقد اعتمدت أنماط الحياة في مجتمعات الصيد وجمع الثمار على المعارف والمهارات الهائلة والانتباه والحذر الشديدين، إلا أنها كانت تفتقر إلى تشغيل العمالة. ولأن أفراد تلك المجتمعات كانوا أكثر فاعلية، فقد كان عليهم اكتساب معرفة عميقة بالنباتات والحيوانات التي يعتمدون عليها، فضلاً عن معرفة مساحات الأراضي التي يجوبونها. كان عليهم تنمية مهاراتهم في صناعة أدوات الصيد وجمع الثمار وكيفية استخدامها، وكان عليهم أن يبتكروا طرقاً جديدةً لإيجاد الطعام والدفاع عن أنفسهم ضد الحيوانات المفترسة، لكنهم لم يكونوا مضطرين إلى العمل لساعات طويلة.

في الواقع، كان قضاء الساعات الطويلة في الصيد وجمع الثمار، يؤدي إلى نتائج عكسية، لأنه يتسبب في استهلاك الغذاء بشكل أسرع من إمكانية إعادة توفيره. يرى علماء الأنثروبولوجيا أن أفراد مجتمعات الصيد لم يكونوا يميزون بين اللعب والعمل مثلما نفعل اليوم. فقد نشأوا وترعرعوا وهم يمارسون لعبة الصيد وجمع الثمار، وانتقلوا تدريجياً من اللعب إلى الممارسة الفعليَّة، ولكن بنكهة اللعب، ولم ينظروا إلى العمل باعتباره كدحاً وفعلاً يومياً إلزامياً.

ومع ظهور الزراعة، بدأت المجتمعات تميل إلى الحد من حرية الأطفال، وتعزيز الأساليب العقابية في التربية. حدث هذا على ما يبدو في كل مكان؛ ففي دراسة أجريت في منتصف القرن العشرين، استخدم العلماء وثائق أنثروبولوجية لترتيب المجتمعات وفقًا لفلسفات وأساليب تنشئة أطفالها. وقد تراجعت المجتمعات التي تشدّد على الطاعة العمياء واستخدام العقاب البدني، لتأتي في مكانة متأخرة ومنزلة متدنية. فيما أوضحت الدراسة أن هذا الترتيب مرتبط ارتباطاً وثيقاً بطرق المعيشة في هذه المجتمعات. فكلّما اعتمد المجتمع بقدر أكبر على الزراعة، وبقدر أقل على الصيد وجمع الثمار، كانت القيمة الأهم فيه هي الطاعة، وتبعه التقليل من قيمة إشباع الذات والإنجاز في الحياة كنتيجة حتمية للطاعة العمياء والتربية الصماء. وتوالت الدراسات بعدئذ لتؤكد على ما تم التوصل إليه من نتائج في هذا المجال.

يعد ذلك الاختلاف الثقافي في تربية الأطفال أمراً منطقياً إذا ما تأملنا تلك الصفات الشخصية للمزارع المثالي مقارنةً بصفات الإنسان المثالي في مجتمعات الصيد وجمع الثمار؛ حيث يعتمد النجاح في الزراعة على التمسك بأساليب مجربة قد أثبتت فاعليتها من قبل. فالإبداع في المجتمع الزراعي يعدُّ مخاطرةً كبيرة؛ فإذا ما فسد المحصول، ضاعت الإمدادات الغذائية لعام كامل. وبما أن المزارعين – على عكس الصيادين – لم يعتادوا مشاركة الغذاء مع الآخرين وإلا ستعاني العائلة التي تفقد محصولها من الجوع. كما أن المجتمعات الزراعيةَ بشكل عام تتسم ببنية هرمية، ولذا فإن طاعة الأبناء لأبيهم المزارع، وطاعة الفلّاحين لصاحب الأرض، تُعدُّ من ضرورات النجاح الاجتماعي والاقتصادي. وبالتالي فإن المزارع المثالي هو المزارع المطيع، والملتزم بالقواعد، والمحافظ على أساليب الزراعة التقليدية التي لا يجوز المخاطرة بمخالفتها. ولذا يهدف الانضباط الصارمُ الذي يفرضه المزارعون على أبنائهم، إلى غرس هذه الصفات في نفوسهم.

ظهور النظام الإقطاعي والصناعي

مع انتشار الزراعة في العالم القديم، أصبح امتلاك الأراضي مرادفاً لامتلاك الثروة، وأصبح من لا يمتلكون أراضيَ يعتمدون على من يمتلكونها. ثم اكتشف أصحاب الأراضي أن بإمكانهم زيادة ثرواتهم بتشغيل غيرهم. وهكذا، ظهر العمل بالأجر كوسيلة لتزويد مالكي الأراضي بالعمال، وشُنّت الحروب للاستيلاء على الأراضي والعمالة والسيطرة عليها. وكان هذا هو السياق الذي نشأ فيه أطفال لا يلعبون ولا يغامرون، لكنهم فقط يتعلمون. بهذه الطريقة أصبح التعليم مرادفاً للتدريب على ما هو متداولٌ ومُجرّبٌ ومتقادمٌ من الأساليب. ومن ثم كان لزاماً علينا أن نضعَ تلك النتائج نصب أعيننا حينما نتأمل ما آلت إليه مدارسنا اليوم، وما قد تؤول إليه مستقبلاً.

ⓧ أخطاء التعليم الإلزامي

هل التعليم الإلزامي خيار جيد أم سيئ؟ ضرورة أم رفاهية؟ يعتقد معظم – إن لم يكن كل – الناس، أنه جيد، بل وتعتبره كل المجتمعات ضرورياً أيضاً. ولكن هناك وجهةَ نظرٍ جديدةٍ لا تعتبرُ التعليم الإلزامي أمراً مسلماً به، ولذلك ساقت إلينا عدداً من أخطائه وسلبياته مثل:

1- **عدم غرس الإحساس بالمسؤولية الشخصية والاعتماد على النفس.** يتقيد الأطفال في المدارس وغيرها من الأماكن التي يديرها الكبار، بل وينشغل معظمهم في أغلب أوقاتهم بالكثير من الواجبات والعمل القسري الذي لا يحققُ ما ننشده من تنوع الإنجازات، نظراً لانشغاله بتحقيق نتائج متماثلة دون مراعاة لتفاوت الميول وتنوع الاتجاهات، وعندئذ يحرم الطلاب من فرص الاعتماد على النفس وتحمل المسؤولية الشخصية. وبالتالي تضعف ثقتهم بأنفسهم، كما تهتز ثقة الكبار بهم، لاعتقادهم بأنهم غير أكفاء، وغير قادرين على تحمل المسؤولية، مع أن هذا غير صحيح في جوهره.

2- **تقويض الدافع الفطري إلى التعلم بتحويل العلم إلى عمل.** فالأطفال بطبيعتهم فضوليون ومحبون للاستطلاع والاستكشاف واللعب بطرق تجعلهم يتعرفون على العالم ويفهمونه. لكن الطبيعة الإلزامية التي يتسم بها التعليم حالياً تحوِّل العلم إلى عمل. فأي نشاط يُجبَرُ المرء على ممارسته، بوجود وإشراف وبإملاء طرف آخر، فليس إلا عملاً إلزامياً لا يمكن أن نتوقع منه نتائجَ باهرة.

3- **الحكم على الطلاب بطرق تعزز الإحساس بالخجل والغطرسة والسخرية والغش.** يبدو أن نظام تقييم الطلاب بالدرجات والتقديرات، المخصص أساساً لتحفيزهم، قد أصبح وسيلةً لتعزيز السخرية والغش؛ حيث يتم إقناعُ الطلاب دائماً بأن تفوقهم ونجاحهم تحدده درجاتهم المدرسية في الاختبارات فقط، وأن الانتقال إلى مرحلة دراسية تالية، وصولاً إلى التحرر النهائي من نظام التعليم، يعتمد أساساً على ما يحققونه من درجات.

4- **عدم تعزيز التعاون، وتشجيع السخرية.** المدرسة بشكلها الحالي تعلِّم الأنانية وسخرية الطلاب بعضهم من بعض. فإجبار الأطفال على التنافس فيما بينهم، وتصنيفهم تبعاً لدرجاتهم المدرسية، يحملُ رسالةً ضمنيةً بأن مهمة كل طالب هي أن يهتم بمصلحته الشخصية فقط، وأن يتجاهل مصالح الآخرين، لكي يصبح هو الأفضل بينهم. وكأن مساعدته لزملائه قد تضره، لأنها ترفع منحنى تعلمهم وتضاعف درجاتهم المدرسية، مما قد يعني انخفاض ترتيبه هو. كثير من الطلاب يسعون إلى تحقيق إنجازات مشهودة ليشار إليهم بالبنان حين يهزمون الآخرين بدلاً من أن يساعدوهم.

5- **عدم تنمية الحس النقدي.** أحد أهم الأهداف العامة المفترضة للتعليم هو غرس الحس النقدي. ورغم هذا، يتعلم الطلاب تجنب جميع أشكال التفكير النقدي، لأنهم يفهمون أن مهمتهم الوحيدة في المدرسة هي الحصول على درجات عالية في الاختبارات، والتفكير النقدي يتعارض مع هذه الغاية. فلكي يحصل الطالب على درجة جيدة، يجب أن يعرف ما يريده المعلم فيفعله، ولا يحيد عنه قيدَ أُنملة.

6- **عدم تنوع المهارات والمعارف.** بإجبار جميع الطلاب على دراسة نفس المناهج، فإننا نقلّل من فرصهم في فتح نوافذَ جديدة، والخوضِ في مسارات بديلة. وللأسف، يمثل المنهاج المدرسي مجموعة محدودة للغاية من المهارات والمعارف التي تعتبر مهمة في مسيرتنا العملية التي تثري مجتمعنا. ففي هذا العصر المتخم بالمعارف والمعلومات، لا يستطيع أحد أن يتعلم إلا النزر اليسير في كل مجال. بعبارة أخرى: كل إنسان يقطف زهرة من كل بستان. فلماذا يُجبَر الجميع على تعلم نفس النزر اليسير، وقطف نفس الزهرة، في كل صف وكل مدرسة وكل جيل؟!

اختلاط الصغار ومختلفي الأعمار

يستطيع الصغار الانخراط في أنشطة قد تكون معقدة أو صعبة أو خطرة إذا ما قاموا بها وحدهم، أو مع أطفال في نفس عمرهم. وسَيُمكِّنهم التعلم من مراقبة الأنشطة المعقدة التي يمارسها من هم أكبر منهم سناً. ويمكنهم الحصول على رعاية ودعم عاطفي أفضل مما يوفِّره لهم أقرانهم من نفس السن.

كما أن تعامل الأطفال الأكبر سناً مع من هم أصغر منهم، يتيح لهم ممارسة مهارات القيادة والتوجيه والإدارة، فيكتسبون خبرةً وفهماً أعمق للمفاهيم المعقدة عندما يشرحونها لمن هم أصغر منهم، مما يجبرهم على التفكير فيما يعرفونه وما لا يعرفونه. ومثلما يُلهم الأطفال الأكبر سناً من هم أصغر منهم، ويحفزونهم نحو الانخراط في أنشطة أكثر تعقيداً، أو تطوراً، يلهم الأطفال الأصغرسناً، مَن هم أكبر منهم، بالانخراط في أنشطة أكثر إبداعاً وعفوية.

قيمة اللعب المحفوف بالمخاطر

يشير الباحثون إلى أن اللعب يساعد الصغار على تعلم كيفية التعامل مع حالات الطوارئ. فصغار الثدييّات من جميع الأنواع تضع نفسها عمداً وبشكل متكرر، في مواقف حرجة وخطيرة ومخيفة إلى حدٍّ ما أثناء اللعب. فبينما هي تركض وتقفز ويطارد بعضها بعضاً، سنلاحظ أنها تراوِح - باستمرار - بين فقدان السيطرة على حركاتها وتوازن أجسامها، وبين استعادتها.

تلعب صغار الثدييّات من جميع الأنواع تقريباً ألعاب المطاردة. وقد لاحظ العلماء والباحثون أن الحيوان المُطارَد يُظهر - أحياناً - علامات استمتاع باللعبة أكثر من الحيوان الذي يطارده. وعلى ما يبدو، فإن مكافأة لعبة المطاردة هي أن يتحول المُطارِد إلى مُطارَد. نلاحظ هنا أن الوضع المفضّل هو الموقف الذي يتضّمن تعرضاً أكبر للخطر؛ لأن اللاعب الذي يَجري هارباً تكون لديه قدرة أقل على التحكم فيما يحدث، وفرصة أقل في التوقف للراحة، ويكون أكثر عرضة للسقوط والإصابة، من اللاعب الذي يطارده. إذ يبدو أن التعرض للخطر - في حد ذاته - يعد جزءاً لا يتجزأ من الشعور بالإثارة.

وقد أشارت الملاحظات إلى أن الأطفال يضعون أنفسهم عمداً في مواقف مخيفة يكونون فيها عرضةً للمخاطر. فهم يفعلون ذلك عندما يتسلّقون الأشجار، أو يقفزون من أماكن عالية، أو يتسلّقون صخرةً تلو أخرى، أو يستخدمون ألواح التزلج على المنحدرات. في مثل هذه الأنشطة المحفوفة بالمخاطر، يختبر الأطفالُ خوفهم مثلما يختبرون قوتهم. هذا المزيج من الخوف والمتعة هو الشعور الذي نسميه الإثارة. في مثل هذه الألعاب يكون الأطفال مسؤولين تماماً عمّا يقومون به من أنشطة معقدة، وعما يتخذونه من قرارات صعبة.

في ثقافتنا الحالية والتقليدية، يُفرِط الآباء وغيرهم من الكبار في حماية الأطفال من الأخطار المحتملة أثناء اللعب، وفي كل الظروف، مستهينين بقدراتهم على رعاية أنفسهم، والحُكْم الصحيح على الأمور. هذه الاستهانة تُحقّق عكس المتوخّى منها تماماً، فتحرم الأطفالَ من الفرص التي يحتاجونها كي يتعلموا كيف يسيطرون على سلوكهم وعواطفهم.

ثِق بقدرات أبنائك

يرغب العديد من الآباء والأمهات في استخدام أسلوب تربوي يقوم على الثقة والإيمان بقدرات أبنائهم، ولكنهم يجدون صعوبة في هذا. وربما تساعدك الاقتراحات التالية في أن تفسحَ لأبنائك مجالاً كافياً يستخدمون فيه قدراتهم ويستثمرون فيه مهاراتهم:

- **تأمَّل القيم التي تؤمن بها شخصيًا.** اسأل نفسك مثلاً: ما الحياة الكريمة بالنسبة لك؟ وما التجارب التي تجعل الحياة جديرة بالاهتمام وذات معنى؟ الخطوة الأولى تجاه الثقة بقدرات الأبناء هي تقييم ما لديك من قيم، والتفكير في كيفية تطبيقها على أبنائك، وعلى علاقاتك بهم وجوهر تفاعلك معهم.
- **انس فكرة أنك من يحدد مستقبل طفلك.** إذا كنا نقدر قيمة الحرية والمسؤولية الشخصية، فيجب أن نحترم حقوق أطفالنا في التخطيط لحياتهم بأنفسهم.
- **لا تراقب كل ما يفعله أطفالك.** لا تكن على اتصال دائم بهم، ولا تتابع كل تحركاتهم، ولا تتدخل في كل صغيرة وكبيرة من شؤونهم، ولا تسأل عن كافة تفاصيل حياتهم اليومية. بل أفسح لهم المجال ليرتكبوا بعض الأخطاء ويتعلموا منها.
- **وفِّر لأبنائك فرصاً وظروفاً تتيح لهم اللعب والاستكشاف.**
- **فَكِّر في بدائل إضافيةٍ ومعززةٍ ومكملةٍ للتعليم التقليدي.**

من التعليم الإلزامي إلى الالتزام الاجتماعي

كلُّنا راعٍ وكلُّنا مسؤول عن رعيّته. وكُلٌّ مِنّا يحمل على عاتقه التزاماً اجتماعياً تجاه توفير فرص تعليمية ثريّة لكل طفل، بغض النظر عن خلفيته أو مستوى ذكائه أو قدراته وفقاً لما نراها نحن من بعيد، من دون أن نسأله عنها. ولنفكّر سوياً من الآن فصاعداً في إنشاء مدارس مفتوحة، ومرنة وتطوعية ومسؤولة وإيجابية وغير إلزامية، يتمكن فيها الطلاب من اللعب، والاستكشاف، والتعلّم، في بيئة جميلة ومرنة ومفتوحة ومبهجة ومواتية للتنمية الفكرية والجسدية والأخلاقية التي نبتغيها؛ بيئة تساعدنا على بناء مجتمع متلاحم ومتكامل ومتفاعل بين أفراده، ومبدع في رؤيته، وذكي في فكره، ومنتج في عمله، وإيجابي في نظرته، وسعيد في كافة مناحي حياته.

المؤلف:

بيتر جراي: باحث وعالم نفس في كلية "بوسطن" الأمريكية، وله مدونة تربوية شهيرة باسم: "التعلم الحر Free to Learn".

كتب مشابهة:

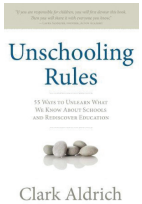

1. **Unschooling Rules**
55 Ways to Unlearn What We Know About Schools and Rediscover Education
By Clark Aldrich. Greenleaf Book Group. 2011

قواعد التعلم اللاصفي: 55 طريقة لتغيير التعليم المدرسي وإعادة اكتشاف التربية. تأليف: كلارك ألدريش. مجموعة جرين ليف للنشر 2011

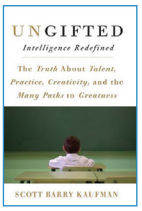

2. **Ungifted**
Intelligence Redefined.
By Scott Barry Kaufman, 2013

اللاموهوبون!: إعادة تعريف الذكاء. تأليف: سكوت باري كاوفمان 2013

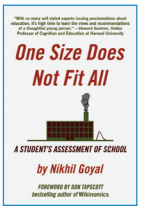

3. **One Size Does Not Fit All**
A Student's Assessment of School.
By Nikhil Goyal. 2012

الطالب وليس القالب هو الغالب: عندما يقيم الطلاب المدارس. نيكيل جويال. 2012

"كان أبناء مجتمعات الصيد
وجامعي الثمار والمزارعين، يتقبلون
الواقع، ويرضون بالقدَر، كما
يرضون بالقليل، وكانوا متلاحمين
ومتعاونين، لا متذمِّرين
ولا شكّائين."

بيتر جراي

يعتمد نجاح منطقتنا على بناء بيئة معرفية،

صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

ص.ب: 214444
دبي، الإمارات العربية المتحدة
هاتف 044233444
نستقبل آراءكم على pr@mbrf.ae
www.mbrf.ae

للتواصل الاجتماعي وفق التالي:

mbrf_news

mbrf_news

mbrf.ae

© جميع الحقوق محفوظة